

أفكار

# الريان الجري

بقلم  
عبد التواب يوسف



8

Y





الرَّيَّانُ الْجَرِيُّ



A decorative horizontal line featuring a repeating pattern of stylized floral or star-like motifs.

بقلم

الطبعة الثالثة

---

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

---

## مقدمة

هذه قصة من تاريخنا ، فيها جوانب مشرقة رائعة ، حاول البعض أن يسدل عليها ستاراً كثيفاً فلا نستدل عليها ، وقد نغفل عنها هرباً من بعض صورها ..

.. ولكنها بمقياس العصر الذى وقعت فيه تعد أسطورة فذة ، وبطلها يحق لنا أن نفخر به ، على الرغم مما حاولوا إلصاقه بحياته وتصرفاته ، فليس لدينا سجل لها ، ومراجعنا - مع الكثير من الأسف - أغلبها من خصومه .. ونحن هنا نحاول أن ننقى الصورة مما علق بها من شوائب نتيجة لزمان طويل أحال من فوقها التراب ، ونتيجة لروايات غريبة تناثرت هنا وهناك بلا أسانيد ولا رابطة تجمعها ..

منذ قرن ونصف أراح « رحمة » الدنيا ، واستراح .. لقد كان قَلِقاً ، مُقْلِقاً ، عاش حياته العريضة بخاراً عظيماً ، وملاحاً محارباً ، وريّاناً جريئاً ، يتخذ من البحر ميداناً لتلك الفروسية التى مارسها



جدوده وأهله على البر ، ولم يملك البعض إلا أن يعترفوا ببطولته . .  
وهذا بعض مما قالوه عنه :

يقول جيمس بلجريف :

« إن الرُّبَّان الكويتي الجريء رحمة بن جابر أبلى بلاء عظيماً في  
معركة البحرين ضد الفرس .  
ومنذ ذلك الحين ذاع صيته وشاع . . » .

ويقول بوكنهجام :

« هذا المحارب البارع كان يعيش حياة بسيطة ولا يرتدى إلا اليسير  
من الثياب ، حتي إنه ما من غريب يستطيع تمييزه عن رفاقه إذا ما سار  
وإياهم . . وكان نحيل الجسم ، نحيل الأطراف ، تملأ جسمه آثار  
الجراح . . أما وجهه فقاس ، خال من معاني الجمال ، ويزيده قسوة  
آثار الجروح فيه ، وفقدان إحدى العينين » .

ويقول جان جاك بيري :

« سيطر هذا الملاح المحارب على الخليج فترة طويلة ، وعندما رأى  
الدائرة ستدور عليه ، وأيقن أنه لا محالة هالك ، فجر بنفسه مركبه ،





وألحق الهلاك ببهارته وأعدائه . . وبعد رحمة لم يعرف الخليج ربابة  
محارين .

ونحن نقول :

فليكن رأيهم فيه ما يكون . . أما نحن فإننا لا بد أن نعرفه ، ونعتز  
به ، ونلقى الضوء على حياته ومغامراته . . وقد يكون من بين هذه  
المغامرات ما لا نرضى عنه ، ولكن الرجل كان إنساناً : بضعفه وقوته ،  
بخيره وشره ، بحسناته وسيئاته . . بل كان « بطلاً » بمقياس الأيام التي  
عاش فيها ، وكان « مناضلاً » بمقياس العصر الذي نعيشه . .  
رحم الله « رحمة » .

\* \* \*





## فارس أم بحار !

وبدأت المعركة . . .

كانت حامية الوطيس ، و « رحمة » الصغير يرى وهو يقاتل  
الصبيان واحداً بعد الآخر ، ويتصر عليهم انتصاراً باهراً . . . ولكن  
أحدهم كاد يغلبه ، إلا أنه استطاع أن يتماسك ، ويقبض عليه بيد من  
حديد ، ثم يطرحه أرضاً ويرقد فوق صدره ، وما إن رفع يده يريد أن  
يهوى بها عليه حتى تكاثر الأطفال ضده ، كل منهم يأخذ بتلابيبه من  
ناحية ، ويتعاجزونهم بينهم ، فأصابه الدوار ، وشعر كأنما هو وسط  
أمواج بحر تتقاذفه ، لم ينقذه منها إلا صياح الديك ، وصوت أمه . .  
فاستيقظ من نومه ، ودعك عينيه ، وهز رأسه ، وهو لا يكاد يصدق  
أنه نجا من خصومه . .

قالت له أمه :

- هيا يا ولدى . . انهض . .



قام من فراشه يتمطى ، ويحرك ذراعيه مدًا وثنيًا ، وهمس في  
صوت متراخ :

- ها قد نهضت يا أمى ..

هتفت فى حنان :

- احلب لنفسك بعض لبن العترة ..

مضى الصغير إلى خارج الخيمة فى بطاء وثاقل ليستقبله النور  
والهواء ، فراح يملأ عينيه وصدره ، وينشق عطر الصباح فى سعادة  
غامرة ، إذ كان يحب هذه اللحظة من يومه : لحظة لقائه بالصباح  
الجديد .. ، وتطلع يبصره إلى السماء الصافية وقطعة بيضاء من  
السحاب تدفعها الرياح فى حنو ، والشمس تشرق رويداً من خلفها ،  
وشعاعات حمراء قد بدأت تطل من وراء الأفق .. ومن بعيد وصل  
إلى سمعه صوت مياه الخليج ، هادئاً هامساً ، والموج يتكسر فى رفق  
على شط قريته « التى تطل عليه » والنسيم يداعب أطراف النخيل وقد  
تفتحت قلوبه تجاه السماء ، كأنه فى صلاة صامته .

أقبل الصبي على العترة الأربع ، فتمسحت به وهو يركع بجانبها  
وفى يده إناء صغير ، استطاع بعد جهد كبير أن يملأه لمصصفه باللبن ،  
وناولته أمه بضع بلحات ، بدأ يأكلها ويشرب اللبن ..  
سألته أمه :





- إلى أين تذهب اليوم ؟  
- إلى البحر طبعاً ، مع عمى ...  
قالت أمه في لهجة تحمل عتاباً رقيقاً :  
- ومن يصحب العترات لترعى العشب مع ماشية خالك ؟  
- لقد شمت المرعى ...  
- يا ولدى ، العترات في حاجة إلى الطعام ، وإلا فلن تعطينا اللبن ...  
- تستطيع أختي أن تذهب بها ...  
انصرفت الأم إلى شئونها ، على حين راح هو يعد الشباك ، ومضى بعض الوقت قبل أن تقول الأم :  
-- لست أدري لماذا بدأت تنصرف عن بيت خالك ؟  
-- كنت هناك بالأمس ، وسهرت إلى ساعة متأخرة أسمع قصة « عنزة » .. اعتدلت شقيقته في فراشها ، وهتفت :  
- أحسست بك عندما عدت ، ورأيتك في ضوء القمر تحمل قطعة من الخشب ، وتمتطي صهوة شيء ما على أنه حصان ، وتُصُول وتُجُول ، كأنما أقبل جيش الأعداء ، ورحلت تنال عليهم طعنًا وتقتيلاً ...  
أطرق « رحمة » وضحك في خجل وهو يقول :

- ظننتك نائمة .

قالت الأم :

- إن هذا العبث لم يعد يليق بك ، أنت الآن فى العاشرة من عمرك وأقرانك فرسان بحق .

قال :

- وأنا أيضاً فارس ، لولا أننا لا نمتلك حصاناً ..

قالت أخته :

-- ألم تقل إنك تريد أن تصبح بحاراً؟ ..

لم يجب « رحمة » ولكنه انصرف مهرولاً إلى الخارج ، حاملاً أدواته ، وهو يطرح على نفسه هذا السؤال :

- فارس أم بحار؟ ..

لقد ناقش الأمر مراراً ، وتحدث عنه مع « خليل » ابن خاله ورفيقه ، ومع أخته وهم يجلسون إلى ظلال النخيل والأغنام ترعى العشب بالقرب منهم ، وتمضغ طعامها وإفطارها ، وتجترها فى صمت ..

كان « خليل » يدافع فى حرارة عن الفروسية ، فهو يهوى الخيل ويحب ركوبها ، كما أنه ورث الإعجاب بالفرسان عن أبيه الذى يرى أن عنزة هو بطل الأبطال .. وقد أقام الأب وليمة حافلة ، شهدها كثيرون



جاءوا من أماكن بعيدة ، وكانت المناسبة أن الراوى كان قد وصل في قصته إلى زواج عنتره من عبله ، فانتهر الأب الفرصة لكي يقيم هذا الحفل البهيج الذى ظل حديث الناس لفترة طويلة . . إذ كادت الوليصة تنقلب إلى معركة ، لأن واحداً من الموجودين تجاسر وقال إن « عنتره » لو قابل « الهلالى » لما استطاع أن يتصر عليه . . ولقد ضاقت أم « خليل » بإعجاب زوجها الشديد بالبطل الشهير ، وطلبت إليه أن يهتم بعمله ويلتفت إلى رزقه ، بدلا من الجرى وراء هذه الروايات والحكايات ، وانضم « خليل » إلى والدته وساندها فى هذا الموقف ، فإذا بالأب يثور ثورة عارمة ، ويخاف الابن غضبة أبيه فينطلق إلى بيت عم له ، يشكو إليه ما حدث ، فهذا العم من تأثرته قائلا :

- أبوك أخى ، وأنا أعرفه جيداً . . كثيراً ما طلبت منه أن يدع هذه الخيالات . . سعاد خليل بكلمات العم ، واطمأن إلى أنه سوف يعيد الوالد إلى صوابه ويرجعه عن هذا الطريق ، وواصل العم كلماته قائلا :

- نعم . . والدك يعيش فى خيالات مريضة . . أنا واثق من هذا . . إن بطله « عنتره » هذا لا يستطيع أبداً أن يهزم الزناتى خليفة . . لو أنه قابله . .



ذهل خليل ، وأدرك في هذه اللحظة فقط أن الأسرة كلها مفتونة بالحكايات الشعبية وأبطالها . وكثيراً ما كان « رحمة » يداعب والدته وصديقه « خليل » بهذه النوادر ، وتضحك الأم وابن شقيقها ، ويردان له الصاع صاعين بالنسبة لغرام أسرة والد « رحمة » بالبحر ؛ إنهم جميعاً بلا استثناء بحارة ، وصيادو أسماك ولؤلؤ ، وهم لا يستطيعون أبداً أن يحرروا أنفسهم من حب البحار والأسفار . . بل إنه هو أيضاً قد ورث عنهم هذا الحب ، ولم يكن يوقعه في الحيرة بين الفروسية والبحرية سوى الحكايات التي كان يسمعها في بيت خاله ، والتي كانت تسحره قبل أن يحمل عمه من البصرة نسخة من « ألف ليلة وليلة » ، ليقرأ له فيها قصة « عبد الله البرى وعبد الله البحرى » وقصص السندباد . . وكان عمه يتطلع إلى الخليج وهو يقول له :  
- من هنا خرج السندباد إلى الدنيا الواسعة . . أبحر في رحلته الأولى إلى الأرض المتحركة ، ولقى هناك خيول البحر حين رست سفينته عند صوت حسبه جزيرة . . وفي رحلته الثانية تركوه في جزيرة نزلوا إليها وأبحروا منها قبل أن يستيقظ من نومه ، وعندما استيقظ رحل إلى أرض الماس ، ليلتقطه الرخ ويطير به في أول رحلة جوية قام بها إنسان . . وعندما ضلت سفينته في رحلته الثالثة زار وادى الأقزام والعمالقة ، و . . .







بالخوف من أصحابها . . وكثيراً ما كان يمضى إلى الشط ، يرقب السفن والبحارة ، يبحث بينهم عن هؤلاء « الأباليس » فلا يجدهم . . وقد يختار لنفسه بقعة خالية من الشط ، ومعه بعض أصحابه ، ويقوم بصناعة زوارق من ورق ، يدفع بها إلى الماء لتطفو وتسبح ، ومن مكانه على الأرض يصبوب إليها قذائفه لكي يصيبها ويغرقها ، ويسأله أصحاب :

- لِمَ هذا يا « رحمة » ؟ . .
- إني أتصورها سفن الأعداء . .
- ويقول واحد منهم ويعقب آخر :
- كل السفن للأعداء . .
- نعم ، لم يكن للعرب سفن . .
- ويهتف « رحمة » في غضب :
- بل كانت لنا السفن ، شاعرنا قبل الإسلام هو القائل :
- ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
- وأنشد الجميع هذه الكلمات ، موقعة على أنغام حلوة . . وما إن انتهوا من الغناء حتى واصل « رحمة » حديثه :
- ثم : ألم تسمعوا عن معركة « ذات الصّواري » ؟ . . ألم تسمعوا عن سفن « طارق بن زياد » ؟ . .



سأله أحدهم :

- كيف عرفت كل هذه الأشياء ؟ ..

أجابه :

- أعمامى لهم صلات قديمة بالبصرة ، وهم دائماً يبدأ رانحون إليها  
غادون منها ، يحملون التجارة وينقلون البضائع .. ويأتون منها  
بالكتب ..

سألوه :

- هل ذهبت أنت إلى البصرة ؟

قال :

- ذهبت إليها مرة وأنا صغير .. لا أكاد أذكرها .. رأيت فيها  
سفناً كثيرة لا حصر لها .. ومنذ عام لم يعد أعمامى يترددون عليها ، فقد  
احتلها الفرس ، لذلك تحولت تجارة الهند إلى بلادنا « الكويت » تمر  
عبرها من الشرق إلى سوريا ..

ويمسك « خليل » الخيط ، ويروى قصة القوافل التي تسير براً ،  
يحميها الفرسان حتى تصل إلى « دمشق » .. ثم يتشعب الحديث بين  
الصحاب ، ويقضون وقتاً طيباً ، ثم يعودون إلى دورهم .. ويبقى  
« رحمة » وحده ، لا يريد أن يغادر الشط ، ولا يرغب في العودة  
انتظاراً لقدم سفينة تحمل « الأباليس » ..



وهكذا تسلل حب البحر إلى نفس « رحمة » فكان يستيقظ كل صباح ليجرى إليه ، كأنما هو يناديه ، وما كان يستطيع أن يقضى يوماً كاملاً بدون أن يسبح في مياهه ، أو يستقل سفينة تبحر فيه ، أو يشارك عمه في الصيد . . . وعندما شعر العم بغرام « رحمة » وحبه الكبير للبحر ، قال له :

- يا « رحمة » . باعد ما بينك وما بين هذا البحر . .  
إياك أن تصدق ابتسامته ذات يوم صاف جميل .  
احذر دعوته لك إلى رحلة ممتعة مع النسيم .  
لا تقبل إغراءه لك بالتجارة الراجحة ، باللؤلؤ الثمين .  
إنه يحفر لك في جوفه قبراً ، أو يقذف بك إلى الشطّ خطاماً .  
ولم تنجح كلمات العم في صد « رحمة » عن البحر ، كما لم تستطع حكايات الخال أن تجذبه إلى البر ، إذ أصبح الخليج رفيقه وصديقه ، وأضحت أحلى أوقاته تلك التي يقضيها بجانبه أو وسط مياهه ، أو فوق سفينة تمخر عبابه . . . وكثيراً ما كان يقف ، ويمسك بيسراه السارية ، في حين يضع يمينه في وسطه ، ويتطلع إلى الأفق البعيد ، كأنما يستشف عنده المستقبل ، ويسأله عما يخبئه له ذلك البحر الأخضر الساحر . .  
وفي واحدة من هذه الرحلات القصيرة لقي « رحمة » رجلاً هندياً عجوزاً ، له لحية سوداء كثة ، وعينان لامعتان ذكيتان ، ووجه أسمر







باسم . . . وقد تفرّس الرجل طويلا في وجه الصبي ، وطلب إليه أن  
يبسط كَفِّه ، وحدّق فيها لحظات قبل أن يقول له ، وعمه يقف بجانبه  
يسمع في دهشة :

- يارحمة بن جابر . .

عين ماء تقودك إلى الماء ،

تفقد العين وتسود الماء ،

تصبح عيناً ويغلبك الماء .

\* \* \*



## البحار الصغير

ذات مساء ، كان « رحمة » يقف وحده على الشط يسامر المياه ،  
ويحدثها ، وأصداء كلمات الهندي العجوز ترن في أذنه ، وقد غفل عن  
كل ما حوله . . ومن بعيد تهادت سفينة ضخمة ، ذات أشعة بيضاء  
أربعة ، وعندما اقتربت من الشط ألقي البحارة المرساة في رقة كأنما  
يخشون أن يمزقوا صفحة المياه . . وجرى « رحمة » تجاه السفينة حتى  
لامست قدماه الماء ، تغسلها الأمواج غادية رائحة ، والسعادة تملأ  
قلبه ، إذ لاحت له فرصة رؤية مثل هذه السفينة الكبيرة التي لم يرمثلها  
من قبل ، وأدهشه أن ترسو بعيداً عن الميناء ، وفي هذه البقعة الخالية  
من البيوت والناس . .

وقفت السفينة ثابتة كالطود ، وأنزل بحارتها بعض القوارب في  
الماء ، وراحوا يجذفون تجاه الشط ، « ورحمة » يرقبهم في ذهول  
ويتساءل عمن يكونون . . وعندما اقتربوا منه رأى أنهم يلبسون



ملابس غريبة ، ويحملون أسلحة عديدة ، ويضعون في آذانهم أقراطاً ذهبية ..

وبعد لحظات قفزوا إلى البر بحفة وسرعة ، وكان يتقدمهم واحد حول أصبعه خاتم تلمع فيه ماسة كبيرة .. أقبل هذا الرجل نحو «رحمة» وقال له في لغة عربية ركيكة تشوبها لكنة تركية :

- نحن نبحث عن مياه عذبة للشرب .. سمعنا أن هنا عين ماء

قريبة ..

قال رحمة :

- هذا صحيح .. تعالوا أدلكم عليها .

ومضوا خلفه يحملون قرباً فارغة ، وعندما وصلوا عند العين بدءوا يملئونها ، ورئيسهم ذوالخاتم البراق ، يرقبهم في اهتمام ، ويطالبهم بالإسراع في عملهم ..

اقترب «رحمة» منه ، وسأله :

- هل أنت بخار؟

أجاب الرجل :

- نعم ..

سأله «رحمة» :

- هل رأيت قرصاناً؟ ..





- ضحك الرجل ضحكة عالية ، وقال :
- ربما .. أظن أنى قابلت بعضهم ..
- هتف «رحمة» فى دهشة وفرح :
- حقاً ؟ .. هل رأيت «كابتن كيد» شخصياً ؟ هل قابلت «بيريك التركى» ؟ هل عرفت «الأمير مهنا» ؟ ..
- ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وهو يقول :
- لا أظن أنى تشرفت برؤية أحدهم ، ولكن زعيمنا قابل بعضهم ويعرف الكثير عنهم ويحب أن يراك ويتحدث إليك عنهم .. فإنك برغم جهلك تبدو صبيّاً ذكياً ..
- وأضاف واحد من البحارة :
- حقاً ، لماذا لا تأتى معنا إلى السفينة وتحدث إلى القبطان ؟
- سألهم «رحمة» فى لهفة :
- هل أستطيع أن أصحبكم ؟ ..
- أجابه أحدهم :
- نعم ، لِمَ لا ؟ ..
- قال «رحمة» :
- ولكن أُمى تنتظرنى ، وستقلق لو أننى تأخرت كثيراً ..
- رد الرجل ذوالخاتم البراق فى أصبعه :



ساد الصمت فترة تصورها « رحمة » ساعات كاملة ، والرجل  
يقذف من فيه دخاناً لا يصدر إلا عن مدخنة ، ثم ألقى نحو « رحمة »  
بنظرة عابسة ، وقال وكلماته تنطلق من فيه كالحمم :  
- ماذا تريد أن تعرف عنا ؟

رفع « رحمة » بصره إليه في دهشة وقال :  
- عنكم ! ! ! أنا أريد أن أعرف الكثير عن القراصنة ..  
قال الرجل :  
- نحن قراصنة ..

فتح « رحمة » عينيه ، وفمه ، وهتف في ذهول :  
- أنا إذن فوق ظهر سفينة قراصنة ؟  
قال الزعيم :

- نعم .. ولو أن من تسأل عنهم من القراصنة سُئِلُوا منذ وقت  
بعيد .. أجروهم « الأمير مهنا » .. كان شجاعاً داهية .. وقد اعتقله  
الأتراك عام ١٧٥٠ ، أي منذ خمسة وعشرين عاماً ، وقطعوا رقبته  
وعرضوه في شوارع البصرة على الناس ليشهدوا ما حل به .. صعب  
« رحمة » لهذا الذي يسمعه ، ولم يفتح فيه بكلمة ، في حين أضاف  
زعيم القراصنة :

- ها قد عرفتنا .. بقي أن نعرف من أنت أيها الصبي ذو الوجه

القاسى والملامح الخالية من الجمال ..  
- أنا .. أنا .. أنا «رحمة» ..

قهقهه القرصان الكبير للاسم الرقيق ، على حين واصل الصبي  
كلماته :

- اسمى رحمة بن جابر .. عمرى نحو اثني عشر عاماً .. ولدت في  
الكويت .. وأنا يتيم الأب .. أعيش مع أمى .  
قال القرصان :

- كفى .. أنت من هذه اللحظة غلامى .. فإننى منذ وقت بعيد  
وأنا أبحث عن صبي مثلك ينظف غرفتى وينظمها ، ويقوم على  
خدمتى .. والآن هيا إلى عملك ..

غضب «رحمة» لهذا الذى يحدث ، فقد صعد إلى ظهر السفينة  
ليسمع عن القراصنة ، فإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه معهم ، ثم هاهم  
أولاء يتبعون أساليب القرصنة معه ، لذلك هتف فى عنف :

- لست أريد أن أكون غلاماً لأحد ، كما أنه لا رغبة لى فى مثل  
هذا العمل ..

صرخ فيه القبطان :

- لم نسألك إن كنت تريد أو لا تريد ، ترغب أو لا ترغب ..  
ليس لأحد هنا إرادة خاصة ، أو رغبة معينة ؛ إنما الكل طوع إرادتى





بتسريه من بين أيديهم كالزئبق . . كان يختفي وراء البراميل ، وما إن  
يجروا تجاهه حتى يقفز فوق إحدى القمرات ، وعندما يصعدون إليه  
يتسلق سارية ، كأنه قرد ماهر ، ومنها يتعلق بأخرى إذا وجدهم  
وراءه . .

وبعد قليل كان كل بحارة السفينة يتعقبونه وهم يطلقون أصواتاً  
عالية نيهت القبطان إلى أن شيئاً غريباً يحدث خارج قمرة ، ففتح الباب  
لينحله ما يجري . . الغلام ينطلق ، ويتسلق ، ويتسلل ، ويقفز ،  
وينزحف ، والمطاردون من ورائه بالعشرات ، ولا أحد يقدر على  
الإمساك به ، عند ذلك صرخ القبطان فيهم :  
- كفى . . فليرجع كلٌ إلى عمله .

هدأت الثورة قليلاً ، ووقف «رحمة» كالفأر المذعور يلتقط  
أنفاسه ، وقهقه القبطان وهو يقول له :  
- إنك رائع . . ذلك يجعلني أكثر تمسكاً بك . .  
قال «رحمة» :

- دعني أنزل ، وإلا ألقىت بنفسى من السفينة إلى الماء . .  
ابتسم القبطان في هدوء ، وقد راح يفكر بسرعة :  
- اهدأ . . ولسوف نجيبك إلى ما تطلب . .  
وتقدم نحوه ببطء ، وتراجع «رحمة» يقول :



- لا تحاول أن تمسكنى ..

وكان القبطان قد وصل إلى كومة من الحبال امتدت يده إليها دون أن ينظر إلى « رحمة » وفجأة طار الحبل في الفضاء ، فإذا به يستقر من حول عنق الصبي ، ويكاد يخنقه ، فيقع على الأرض .. وتقدم منه القبطان يوقفه ويقول له وهو يخفف من ضغط الحبل على رقبته :  
- لقد أصبحت أسيرى ..

التقط « رحمة » أنفاسه وهو يقول :

- إنها حركة رائعة تستحق عليها التهئة ياسيدى القبطان .. هل تعلمنى إياها ؟ ..

قال القبطان :

- ابق معى وستعلم الكثير ..

هتف رحمة :

لا .. لا .. إتنى لا أريد البقاء ..

قال القبطان :

- قلت لك من قبل : لا إرادة لأحد هنا غير إرادتى ..

والتفت القبطان إلى البحارة وأمرهم فى صوت عال :

- ارفعوا المرساة ، وانشروا القلاع ، ولتنطلق السفينة تجاه

الجنوب ..



بقى « رحمة » مقيداً ، حبيس قرة القبطان حتى مضت السفينة إلى عرض البحر ، ثم أطلق البحارة سراحه ليتجول على ظهر السفينة ويلقى البحارة الذين كانوا يحبونه مبتسمين ضاحكين ، متمنين له مستقبلاً عظيماً بينهم . وظل هو غاضباً ، ضيق الصدر بكل ما يجرى حوله لوقت طويل ، ثم اضطر أخيراً لمجاراتهم والتعامل معهم . . . وكانوا يضحكون في مرح كلما تذكروا المطاردة المثيرة التي بدأ بها « رحمة » حياته معهم ، والتي جعلته معروفاً للجميع منذ اللحظة التي وضع فيها قدمه على ظهر السفينة . . . ليصبح أصغر قرصان عرفه التاريخ . . . وذات ليلة مقمرة جلس « رحمة » وحده على سطح السفينة ، وسمع أغنية هندية تترامى إليه من بعيد ، يغنيها واحد من البحارة . . . وتذكر « رحمة » الهندي العجوز ، وكلماته التي كان يحفظها عن ظهر قلب :

« عين ماء تقودك إلى الماء » . .

لقد تحققت النبوءة الأولى . .

\* \* \*







ألف « رحمة » حياته الجديدة ، وأحبه القبطان ، والبحارة ليقظته  
 وذكائه .. وبدأ يشارك في أعمال كثيرة ، يقبل عليها في اهتمام  
 ومقدرة ، ويؤديها في براعة وكفاية ، وشعر الجميع بأنه سوف يصبح  
 بحاراً ممتازاً .. وكثيراً ما كانوا يعتمدون عليه في أعمال لا يقوم بها  
 إلا المدربون منهم ، مما جعل القبطان يعجب به إعجاباً شديداً ويقربه  
 إليه ، ويتبسط معه ، ويرفع عنه أعمال النظافة ، التي لا يكلف بها  
 إلا أقل الناس شأنًا على السفينة ، ولم يكن « رحمة » من بينهم ، بل  
 هو يقوم على تلميع السيوف والمدافع ، وإعداد الذخيرة والبارود ،  
 ويشارك في كل شيء ، بل يحدث القبطان حديث الند للند ..  
 قال « رحمة » يوماً للقبطان :

- أريد أن أضع قرطاً ذهبياً في أذني مثل الباقيين ، بل إنني أريد أن  
 يكون لي خاتم في أصبعي ، به لؤلؤة من الخليج العربي ..  
 وضحك القبطان ، وقال له بصوته الجهورى :  
 - ها قد بدأت تطلعاتك أيها القرصان الصغير ..









البحر الأحمر بين أسطولى البلدين ، وكم أسف لأن الصراع قد انتهى لمصلحة البرتغال بسبب استعمار العثمانيين لمصر والوطن العربى كله . . . وتنبه « رحمة » لخطورة هذا الذى جرى ، ويجرى . . . وعرف أن الصراع بين إنجلترا وفرنسا امتد لسنوات طويلة ، بل إن الحرب بينهما امتدت لسبع سنوات كاملة انتهت بهزيمة فرنسا وتخليها عن مستعمراتها فى الهند لإنجلترا ، ومنذ ذلك الحين قلَّ نفوذ فرنسا فى الخليج . . . وكان السؤال الذى يلح على « رحمة » قبل أن ينام كل ليلة :

- أين نحن العرب من كل هذا ؟ . . .

غرق « رحمة » فى بحار أفكاره ، وكان يسمع أكثر مما يتكلم ، ويعمل أكثر مما يسمع ، ويتعلم ويتدرب فى صبر ودأب شديدين ، والبحارة يضحكون لشغفه واهتمامه بالبحر والسفن ، بالقوى المتصارعة والدول صاحبة المصالح ، على أن أكثر ما كان يثيره حكاياتهم عن المعارك التى خاضوها ، وتمنى لو تتاح له فرصة ليشهد واحدة منها . . . وكانوا يقولون له :

- صبراً . . . لا تتعجل ، فلسوف تخرج من معركة لتدخل أخرى . . .

ولم يطل به الأمر ، إذ سمع يوماً صوت واحدٍ من البحارة يهتف :

- أرى على البعد سفينة تجارية . . .







وأبحروا مبتعدين ، وأنشودة نصر وظفر تنطلق عالية من حناجرهم ،  
وبدأت عملية إحصاء الأسلاب وتوزيعها تحت إشراف القبطان وقد  
وقف فوق مكان عال . . و « رحمة » لا يكاد يصدق هذا الذى جرى  
تحت سمعه وبصره ، ويظن نفسه فى حلم عميق شاهد فيه سفينة  
السندباد وقد هاجمها « الأباليس » . . ولكن هاهم أولاء حوله ،  
يرقصون ويغنون ، ويقتسمون الأسلاب التى حصلوا عليها فى فرح  
وبهجة . .

وأيقن « رحمة » أن كل ما حوله واقع حى حين ناداه زعيم  
القراصنة « إنه لم ينسه فى زحمة إحصاء الأسلاب وتوزيعها ، لذلك  
منحه قرطاً ذهبياً صغيراً ، علقه فى أذنه بطريقة همجية أدمتها وآلمته  
كثيراً ، ولكن صيحات وضحكات القراصنة غطت على صرخته ،  
وارتفع هتافهم وتصفيقهم وزعيمهم يقول له :

- ها أنت ذا قد أصبحت قرصاناً ، بحلقة ذهبية فى أذنك . . مثل  
كابتن كيد ، وبيريك ، والأمير مهنا . . المهم أن تتفادى مصيرهم . .  
وحمله القبطان بين يديه ، ورفعها عالياً ، ثم قذف به وسط  
البحارة ، وتلقفوه بين أيديهم ضاحكين . .

ولم تنم السفينة فى هذه الليلة ، بل ظلت ساهرة تحتفل بهذه المناسبة  
السعيدة ، وقد أضاءت المشاعل جنبات المكان ، وانعكست أنوارها



على المياه تسبح معها وهي منطلقة تجاه البحرين . . .  
وقرب الفجر وضلت السفينة إلى هذه الجزر الرائعة التي فتنت  
« رحمة » حين تطلع إليها ليراها لأول مرة ، ولكي تسحره بقية  
عمره . . . ونزل إلى الماء ليسبح ، ويشرب من العيون التي تنفجر في  
أعماق البحر ، وازداد إيماناً بقدرة الله الذي يخرج الحي من الميت ،  
والماء العذب من قلب الماء المالح . . .  
شيء واحد ، تألم له « رحمة » في البحرين . . . ذلك هو أن أهله  
العرب كانوا يُسامون الظلم والخسف ، ويلقون العنف والاضطهاد على  
مدى سنين طوال . . . جاءهم البرتغال ، وأخذوا أرضهم وشيدوا عليها  
الحصون والقلاع . . . ولكنها لم تحميهم حين قدم الأمير شيراز عام  
١٦٠٢ من الشط الشرقي للخليج لكي يطرد البرتغال ، وعلى مدى من  
الزمان كان الصراع بين العثمانيين والفرس عنيفاً من أجل البحرين ،  
وشاركت فيه عمان إلى أن استتب الأمر أخيراً في يد « نادر شاه » .  
ولقد ظل « رحمة » طيلة وجوده في هذه الجزر الساحرة يفكر في  
مستقبلها . . . وتذكر أقاصيص عن « خالد بن الوليد » و « سعد  
ابن أبي وقاص » و « القادسيّة » . كان يروىها عمه الذي كان يتردد على  
البصرة بجرأ ، وخاله الذي يسافر إلى دمشق برأ . . . وكان كلما تنقل بين  
هذه الجزر هتف في نفسه :







الذى يفعله عن غير رضا ، وبلا اقتناع . . يالها من حياة تتلخص في  
كلمة واحدة هي :  
« صراع » . .

\* \* \*







## الريان الجديد

امتشق كل منها سلاحه ..

صراع جديد ، وقف البحارة يرقبونه باستخفاف في بداية الأمر ، فقد ظنوا أن نتيجته معروفة مسبقاً .. التفوا حول « رحمة » الفتى الشجاع ، و« عبدون » القرصان الرهيب ، وهما ملتحمان في معركة عنيفة ، كان من الواضح أنها لا بد أن تنتهى بمصرع واحد منها ، هو أضعفها بالطبع ..

إن بساطة « رحمة » أغرت هذا القرصان الخبيث ، فراح يداعبه فى سخف ويضايقه محاولاً سلب نصيبه من الغنائم التى حصل عليها من عمليات الإغارة على السفن ، مع أن نصيب « رحمة » كان ضئيلاً هزئياً ، ولكنه الطمع والجشع ... ولم يكن « رحمة » يسمح لزملائه بالتمادى فى العبث معه ، ويحاول أن يبدو جاداً ، ليغطى على صغر سنه ، ونحافة قوامه ، وتواضع مظهره ، ولم يتحمل أسلوب « عبدون »



ولم يطق تصرفاته حياله ، وبرغم إدراكه أن هذا القرصان أقوى منه وأكثر خبرة فإن ذلك لم يحل بينه وبين أن يعلن عليه الحرب ، وأن يدخل معه في معركة قد لا تكون في صالحه ، فإن خصمه في استطاعته أن يورده مورد الهلاك ، أو يجرحه جرحاً كبيراً إذا هو تفرق به ، ولن يترفق . .

فُرضت المعركة على « رحمة » وعليه أن يصمد ويقا تل . . وقد دافع عن نفسه في جسارة وبسالة ، ونجح في إفساد هجمات خصمه ، الأمر الذى جعله يستشيط غضباً ، ويخور كالثور وهو ينقض على الفتى الصغير النحيف ، فإذا بهذا يفلت من بين يديه ويعاجله بضربة عنيفة من سلاحه . . ويطيش صواب « عبدون » ويفقد اتزانَه ، ويبدأ « رحمة » فى الهجوم عليه ، ويضطر القرصان للتراجع ، وشدد الفتى الهجوم ، وقد بدأت المعركة تسترعى الالتفات وتجذب الأنظار ، وتشيعت جماعة قليلة للفتى الصغير الذى واصل الهجوم فى شجاعة منقطعة النظير ، وضغط على خصمه بين التهليل والتصفيق . . واحتدمت المعركة بالغة العنف والإثارة ، وينجح « رحمة » فى ضرب سيف خصمه ، ويسقط السيف قرب حاجز السفينة ويتراجع « عبدون » بسرعة وجزع ، فإذا به يصطدم بالسور عند قطعة متصدعة منه ، فينهار به إلى الوراء ويسقط فى الماء ، ويغالب الأمواج وتغالبه .



وفوجئ البحارة بالفتى « رحمة » يلقي بسلاحه ويقفز وراءه في الماء ، ويتصورون أنه قد فعل ذلك من أجل مواصلة القتال ، ولكي يفرق « عبدون » ولكنهم ذهلوا إذ اكتشفوا أن الفتى كان يصارع الأمواج من أجل إنقاذ غريمه ، إذ إن سقوطه المفاجئ لم يدع له فرصة يستعيد فيها نفسه . . ونجح الفتى في مهمته ، وعاد بغريمه إلى السفينة قبل أن تبتلعه الأمواج . .

وأصبحا صديقين . . وما أقل الأصدقاء فوق ظهر هذه السفن . . إنها تمضى لتسلب وتسرق . . وقد تنضم في قوافل تتألف الواحدة من عشرين سفينة تنتشر كأسنان المشط ، لاتبعد الواحدة عن الأخرى سوى خمس أو ست عقد ، مما يجعل وجود الطريدة مؤكداً ، لأنه مامن مركب تجارى يمر إلا ويصادف إحدى هذه السفن ، وتنطلق إشارات من النور والدخان متفق عليها ، فتتجمع زميلاتها وتطوق المركب التجارى وتأخذ كل مافيه وتطلق سراحه ، ليبدأ الصراع فيما بينها حول الأسلاب . . ثم يبدأ الصراع بين بحارة كل منها . . ولهذا امتلأت حياة « رحمة » بالأحداث ، وحفلت بالإثارة ، كل يوم يحمل إليه جديداً ، وكل ساعة تقدم له مفاجأة ، لذلك كان دائماً أبدأ في منتهى اليقظة لكل مايجرى حوله . . إن دستور الجميع هو السلب والنهب ، والحرب والقتال . . وتتخرب الجماعات ، وربما يفشل



“ القبطان في إصلاح ذات البين ، ويضطر إلى عقاب البعض ، ويقرر طردهم من على السفينة عند أقرب جزيرة . . وقبل أن يصلوها قد تعود المياه إلى مجاريها . .

وكان « رحمة » محور أحداث عديدة جرت على ظهر السفينة التي أبحر فوقها منذ المطاردة الأولى المثيرة فوق أول سفينة . . حتى المعركة الأخيرة العنيفة مع « عبدون » . . وكانت هذه الأحداث تحمل إليه انتصارات تؤكد مكانته بين البحارة ، وتعلو من شأنه ، وقد نجح في خلال هذه السنوات في كسب العديد من الأصدقاء من بينهم . . ولكن صداقة أوثق ربطته بالمياه والجزر ، والسفن ، وظلت هذه الصداقة تربطه بها بقية عمره .

عرف « رحمة » الكثير عن شواطئ الخليج ، ففي منخفضاته ومستنقعاته انتشرت المخابئ التي يلجأ إليها البحارة هرباً من السفن القوية . . وفي سواحله الجنوبية الشرقية لم يكن عمق المياه يتجاوز الثلاثين متراً ، وهو كثير النتوءات والحواجر الرملية والجزر الصخرية . . وقد أعجب « رحمة » بهذه البقعة ، وتعرف على بعض من سكانها الذين سمو « القواسم » وكانوا لا يوقرون سفن أوربا ، ولا يحترمون سفن الشرق ، إذ كانت لهم سفنهم الحربية المصفحة التي تجاوز عددها السبعين فضلاً عن ثمانمائة سفينة صغيرة . . كانت تتحدى أكبر



البوارج وأحدثها تسليحًا . . . وكان هؤلاء القواسم لا يرحمون ، ولا يرحمون ، وقد رآهم « رحمة » يرقصون ويغنون أغاني الموت وهم يشهرون أسلحتهم للقتال ، ويبعثون الرعب والخوف في أعدائهم ، بل إنهم كانوا يرفضون الفدية ويعتبرونها سرقة للأحياء ويصرون على أن يرثوها عن أصحابها بعد أن يفقدوهم الحياة .

وتعرف « رحمة » إلى الجزر ، عشرات منها ، لم يكن يستقر في إحداها ، وهي تذكره دائمًا بجزر السندباد ، تنتظره وراء كل صخرة من صخورها مفاجأة ، والموت يترصده عند كل منعطف ، عرف جزر البحرين ، وزارها أكثر من مرة . . . ومر بجزيرة « هرمز » عند مدخل الخليج ، وأعجبه كثيرًا ، وشاهد فيها تجارًا من كل مكان ، مراكبهم تمتلئ بالتوابل والأحجار الكريمة ، والعاج ، والأقمشة النادرة من صوف وحرير . . . ومن مرفأ هذه الجزيرة كانت السفن تنطلق حاملة كل شيء إلى شتى أنحاء العالم . . . غير أن الحرارة في هذه الجزيرة لاتطاق ، وتزيد منها الشمس الساطعة والسد الجبلى الذى يقفل كل منفذ للهواء والرياح ، وكثيرًا ماتهب من الصحراء عواصف ساخنة ملتهبة حاملة الرمال ، ويضطر سكان الجزيرة الى الهرب والإلقاء بأنفسهم فى الماء ، يتزلون فيه حتى رعوسهم انتظارًا لتوقف الرياح . . . أما السفن فقد أضحى « رحمة » خبيرًا بكل مافيها ، فإنها دنياه





بسبب زجاجة الرياح التي تعصف بالواحد منهم وهو متعلق بالصاري كالقرد ينشر القلع أويطويه ، ويهبط في ملح البصر لكي يجذب المجاديف بقوة وقد تجمدت الدماء في عروقه من البرد ، وتأرجح السفينة فتلقى به فوق خشب المركب أوفى قاعها ، والصرخات تنطلق بلا مجيب ..

مضت السفينة في عرض البحر ، وكانت تنتظر « رحمة » أكثر من مفاجأة .. لقد انتشل البحارة رجلاً كاد يغرق .. واكتشف « رحمة » أنه رفيقه وصديقه « عبدون » وكانت فرحته به عظيمة .  
وذات صباح فوجئ البحارة بطائر أسود يحوم فوق السفينة ..  
وذهل « رحمة » لأن الجميع انهاروا لدى رؤيته ، ومعهم « عبدون » الرهيب .. وراح يسألهم عن السر في قلقهم وخوفهم فإذا به يسمع لأول مرة في حياته عن قصة أفضع سفينة قرصنة عرفها الخليج ، ويسمع عن صاحبها الذي يطلق هذا الطائر الأسود ، كنذير للمراكب التي سيهاجمها لكي تستسلم قبل أن يصل إليها .. وكان ظهور هذا الطائر معناه أن السفينة سوف تنهب ، وأنها وبجارتها سيكونون طعاماً للأسماك ..

سأل « رحمة » صديقه « عبدون » :

- لماذا لم أسمع من قبل بحكاية الطائر الأسود ؟



أجابه « عبدون » :

- البحارة يخافون من سرد روايتها ..
  - ألا يمكن التغلب على سفيته ؟
  - مستحيل .. ومقاومتها تزيد قبطانها ضراوة ووحشية ..
  - جری « رحمة » يسأل القبطان التركي في قمرته عن خطته ، فإذا به يقول وهو يرتعد ويكاد يبكي :
  - لا بد أن نستسلم ..
  - سأله « رحمة » :
  - ألا نستطيع المقاومة ؟
  - معنى ذلك أن نموت جميعاً ..
  - ليتكم تركتموني أغرق ، كان ذلك أشرف ..
  - غادره « رحمة » وهو يكاد يتمزق غيظاً وضيقاً ، وكان يفكر بسرعة ، وسفينة القراصنة تلوح من بعيد كنقطة سوداء ، تقترب لتلحق
- ... م...

وفي سرعة استدعى « رحمة » إليه « عبدون » ، وبقية بحارة السفينة ، وسألهم .

- هل ترضون بالاستسلام ؟

قالوا : وماذا في يدنا ؟





قال « رحمة » :

- عندى خطة .. آمل أن تنجح ..

قالوا : لو أنها نجحت ، سوف نجعل منك رباناً لسفيتنا ..

قال « رحمة » :

- هذا آخر ما أفكر فيه ..

أسر « رحمة » فى إيجاز شديد بخطته إلى البحارة ، فاستقبلوها فى اهتمام شديد ، وأعجبوا بها كثيراً ، وأقسموا بين يديه أن يبذلوا أرواحهم من أجل أن تنجح ..

وعندما اقترب مركب « الطائر الأسود » ارتفعت الراية البيضاء فوق السفينة التى تحمل « رحمة » وانعقدت فوق السفينتين سحبات من الدخان نتيجة قذيفة أطلقها القراصنة فى الفضاء ، ليهتز معها البحر والسفيتان .. وكان واضحاً أنها أطلقت للإرهاب لا أكثر ولا أقل .. وسرعان ماالتصقت السفيتان ، ووصلت بينهما دعائم خشبية اعتلاها القراصنة ، وهم يصرخون فى نشوة ، وينطلقون كالصقور الجارحة من سفينتهم إلى السفينة المستسلمة التى وقف بحارتها قرب الدعائم فى صمت وحزن ، منكسى الرؤوس لا تبدو عليهم أى رغبة أو استعداد للمقاومة ، يرقبون فى أسى وخوف القادمين عليهم .. كانوا صفير الشعور يبيض الوجوه ، زرق العيون ، على قسمااتهم ملامح الشر

والحقد والبغض ، وتنطلق من صدورهم صيحات متوحشة ، وهم يلوحون بالسيوف بين أيديهم ويقفزون واحداً بعد واحد إلى السفينة السليبية ، ويجرون إلى غرفها وقمراتها وبضائعها في جشع وطمع ، أعمى عيونهم عن « رحمة » وصحبه .

تسلل « رحمة » إلى الدعامات الموضوعة بين السفيتين ، ومن خلفه عدد كبير من البحارة العرب . . وما إن أصبحوا فوق سفينة الطائر الأسود حتى رفعوا الدعامات في لمح البصر . . وانقضوا على من فيها من قراصنة وبحارة ، وألقوا بمن قاومهم في البحر ، وحبسوا الباقين ، ثم وقفوا وراء المدافع المصوية إلى سفينتهم ، وأطلق « رحمة » قذيفة مدوية ، سقطت في البحر لتثير الأمواج والرعب في قلب القراصنة ، الذين فوجئوا بأن « رحمة » قد استولى على سفينتهم القوية ، وتخلص من رجالها . .

« بهت » الطائر الأسود وقراصنته ، واضطربوا لأن يدعُّوا كل ما وصلت إليه أيديهم ليرفعوها في الهواء تحت تهديد مدافعهم . . وهم أكثر الناس دراية بها ، فقد جهزوها بالذخيرة التي يمكن أن تنطلق في ثوان لتصيب صدورهم . .

لقد أسقط في يدهم ، و« عبدون » يمسك بالطائر الأسود ويقيده ، والبحارة العرب يقبضون على القراصنة الأوربيين ، ويلقون

بهم سجناء . . مع القبطان التركي الأحمق الذي لم يستطع أن  
يستوعب هذا الذي يجري من حوله . .  
ويعد أن استتب الأمر ، راح البعارة العرب يلوحون في فرح بالغ  
يحيون الريان الجديد الجريء . . « رحمة بن جابر » . .

\* \* \*







## الملاح المحارب

رست سفينة الفتى « رحمة » ورجاله ، قرب المكان الذى أقفلت  
منه سفينة القراصنة منذ أعوام بعيدة وهى تحمل « رحمة » الصغير  
الذى دل رجالها على مكان عين الماء العذب .

وعندما هبط الفتى إلى أرض بلاده ، مضى يستعيد ذكرياته مع  
كل شبر من الأرض : هنا ملعب طفولته ، وهنا مرعى أغنامه ، وهنا  
كان يسبح على الشاطئ ، ومن ذلك المكان كان يركب السفن مع  
أعمامه ، وعبر هذا الطريق كان يصل إلى بيته ، لقد قطع هذا الطريق  
بخياله ، فى يقظته وأحلامه ، عشرات المرات ، وهو على ظهر السفن  
التي كانت تمخر به عباب الماء ، وكم تمنى أن يضع قدمه على هذا  
الطريق طيلة سنوات غيبته . وها هو ذا يحقق أمانيه ويخطو على الأرض  
الحبيبة خفيفاً سعيداً . وفى لفحة شديدة إلى لقاء أمه بعد غيبة طويلة .  
ها هو ذا البيت أخيراً . .



لم يتغير شيء ، فيا للحياة ! النخيل كما هي ، والرمال ، وصوت العترات ، كأنما هو عائد من رحلة قصيرة إلى دار عمه ، أو إلى بيت خاله .

واندفع رحمة إلى أمه يعانقها ويبكى بين ذراعيها ، والدموع تساقط من عينيها دون أن تقوى على التعبير عن نفسها بالكلمات ، وبعد فترة مضت الأم تردد في حنو وحب :

- رحمة .. رحمة ..

وتلقته أخته بنفس الحفاوة والحماس والحب والشوق والدموع ، ولكن أمه احتضنته من جديد ، ثم أجلسته إلى جانبها وهي تضع ذراعيها حول كتفه وتردد :

- ولدى .. ولدى ..

ومضى وقت طويل قبل أن تهدأ الأم وتثوب إلى رشدتها ، وتسأل ولدها عن حاله ، وعن سنوات غيابه ، ما أكثر ما تريد الأم أن تسمع ، وما أكثر ما يريد الابن المغامر أن يخفى من أحداث ذكرياته ..  
وتكلم « رحمة » قليلا ، وسمع أخبار الأم والأخت عن الحياة الرتيبة الهادئة على الرمال حيث لا أمواج ولا أنواء ، كل ما هناك أن شقيقته ستزوج من « خليل » ، وفي نيتها أن تغادر المكان معه بعد أن رحلت الأسرة كلها إلى جانب من قطر ..





بنفس الغزاة لقد جمع الراحلون الأهل والأصدقاء والأعوان ، ولكن الأعداء موجودون في البحرين تشدهم إلى الخليج لآله الثمينة ، وهم يريدون البقاء فيها إلى الأبد . و « رحمة » يتحدث إلى صديقه القديم « خليل » عن الخليج ، ويستعيد ذكرياته عن الجزر التي زارها وغامر على شواطئها .

- ما أجملها وألوانها تتبدل ، وهي تتوهج في مهرجان من الألوان الساحرة ! . فهي خلال النهار خضراء بلون الشجرة ، صفراء بلون الذهب ظهرًا ، داكنة بلون الرماد عصرًا ، حمراء بلون النار مساءً . . والمياه زمردية ، والسماء بنفسجية ، ومدينة المنامة بيضاء ، والسفن ترفع أعلامًا زاهية . . وأنت تشعر بأن هذه الجزر تسترعى اهتمام المبحرين في الخليج كأنها واحة بحرية ظليلة تروى ظمًا المسافر وتمنحه الراحة التي يستطيع بعدها مواصلة السفر .

وغمغم « رحمة » ، وهو يمسح بيده على مساحة كبيرة من الرمال :  
- ليتها تعود إلى وجهها العربي .

ثم مضى يخط بأصبعه ويرسم دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وقد غفل تمامًا عن « خليل » الذي جلس يرقبه صامتًا معجبًا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يرفع « رحمة » رأسه ، ليقول وهو يشير إلى الخطوط والرسوم :



- هذه هي جزر البحرين . . إنها ست وعشرون جزيرة . .  
خليل : أتذكر مواقعها كلها ؟  
رحمة : بالطبع . . كانت سفن القراصنة تلجأ إليها .  
خليل : أتصور أننا نستطيع تحريرها ؟  
رحمة : ربما . . لاسيما أن الفرس مشغولون بما يجري في بلادهم .  
خليل : من خططنا أن يتعاون آل الصباح من هنا ، من الكويت  
مع أبناء عموماتهم هناك في قطر .  
رحمة : سفن الأعداء أقوى سلاحًا وأسرع سيرًا ، ومدافعهم على  
الشط بعيدة المرمى عنيفة مدمرة .  
خليل : ومن ورائهم حكومة ودولة وجيش ، ثم الأوروبيون . .  
هل يرضون عن هذا الذي نفعله ؟  
رحمة : ومسقط وعمان ؟  
خليل : المهم أن تشارك مع بحارتك في هذه المعركة .  
رحمة : إن سفني وبحارتي فداء لبلدي ، وأنا على استعداد لأن  
أضحى بعمرى في سبيل وضع حد لمهزلة وجود أجنبي دخلاء على  
شطنا العربي من الخليج . .  
وبدأ « رحمة » يشرح لصديقه خطته في إسهاب وباهتمام كبير  
بالتفاصيل ، كان واضحًا أنه لا يريد أن يترك شيئًا للمصادفة . وقد





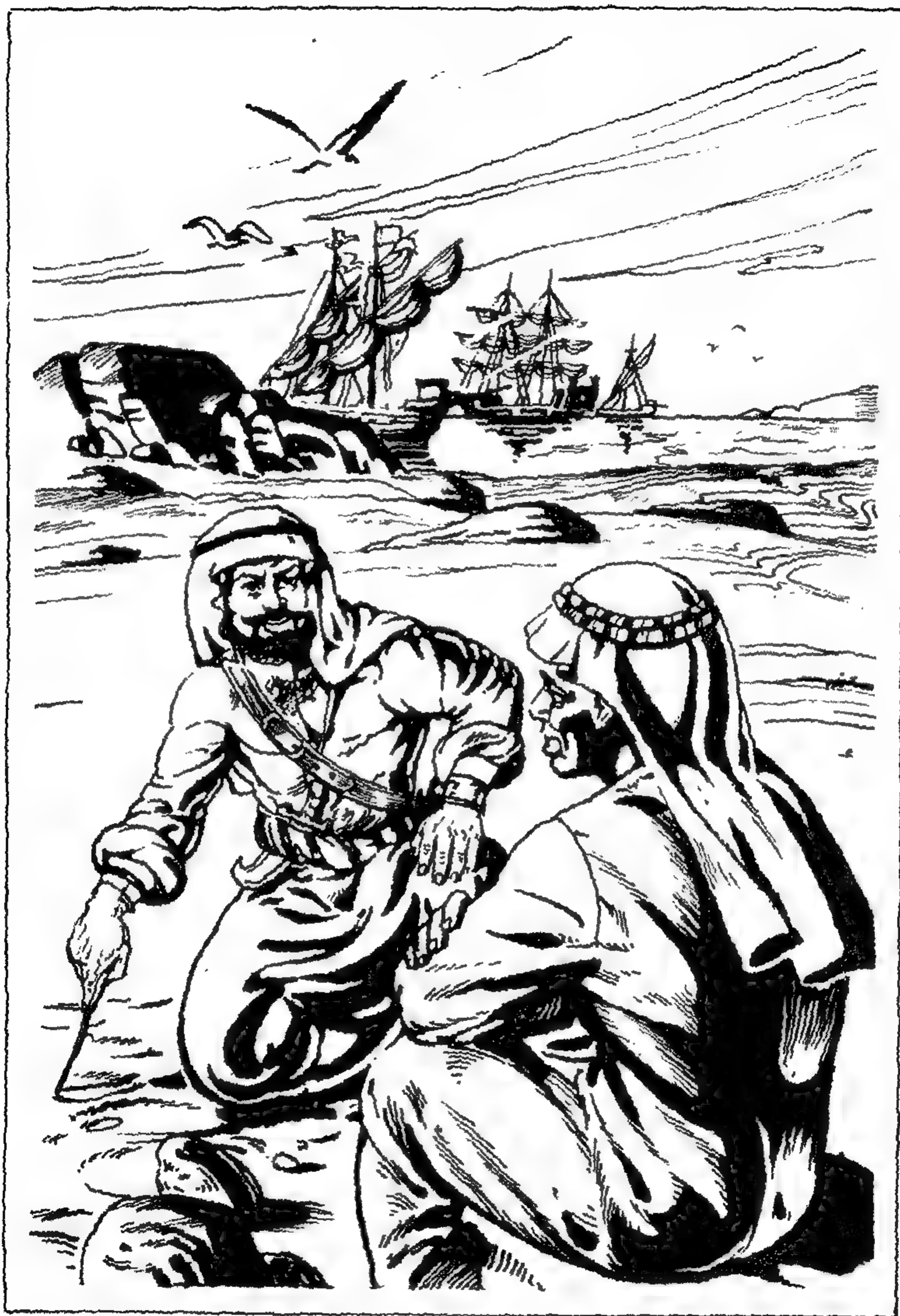


وغضب « رحمة » غضباً شديداً من هؤلاء الرسل الذين يتصورون أن في استطاعتهم أن يشتروه . . ويعتقدون أنه مجرد بخار وريان . وقرصان يبيع نفسه لمن يدفع أكثر ، وعندما طلب إليهم أن يكفوا عن هذه المساومة استمروا في زيادة المبلغ الذي سيدفعونه له ، فما كان منه إلا أن أعلن أنهم لن يعودوا لزملائهم . .

وشدد الهجوم مع رجاله ، غير عابئ بتلك القذائف التي تنال على سفينه من مراكب أعدائه ، وقلاعهم . . وكان يتعرض للموت في كل لحظة ، إلا أنه كان قد آل على نفسه أن يقاتل هذه المعركة بكل ما يملك ، لذلك رفض العودة إلى الخطوط الخلفية ، وظلت سفينه في المقدمة : تصيب وتُصاب . . وهو يشارك جنوده في القتال ، ويتقدمهم إلى الأرض بالسلاح الأبيض ليظهر الطريق أمام الزاحفين ، وينجح في ضرب الأعداء ضربات قاصمة ، ويحسون أنه يقاتل كأنه جيش كامل . . فتتحول قوات كثيفة لمقاومته ، ومحاولة قتله ، ويتفادها ببراعة ، ولكنها بعد أن فقدت المئات عن طريق سيفه البتار تستطيع أن تضرب تجمعا يضمه ، ولا يبدو من بين أفرادهم . . وأصابته شظية في وجهه أفقدته إحدى عينيه ، وزادته إصراراً على مواصلة القتال إلى أن يُجلى أعداءه عن هذه الجزر الساحرة . واستمر يقاتل . .









وانجلىت المعركة عن نصر مؤزر للعرب القادمين من قطر  
والكويت . . لقد دفعوا مئات الشهداء ثمنًا للنصر ، كما دفعه أجدادهم  
ثمنًا لانتصاراتهم في أجنادين واليرموك والقادسية . .

وبحث الجميع عن « رحمة » . .

كان قد باعد مايينه وبين بحارته وجنوده وأصدقائه ، يذرف الدمع  
من عين واحدة ، بعد أن سلبته المعركة إحدى عينيه . . وكان يتطلع  
إلى المرأة الصغيرة ، وينظر إلى صورته فيرى وجهه الذى شوهته  
الجروح ، وزاده فقد عينه تشويهاً على تشويه . وهو ينظر ويتأذى  
ويبكى فى حين كان الجميع يبحثون عنه ليحملوه فوق الأكتاف ،  
وليجعلوا منه رمزاً للبطولة والجسارة والذكاء . أما هو فكان يتذكر  
كلمات ذلك العراف العجوز ، ذى اللحية السوداء الكثة ، والعينين  
اللامعتين الذكيتين ، والوجه الأسمر الباسم ، الذى حلق فيه لحظات  
قبل أن يقول له .

- يا « رحمة بن جابر »

عين ماء تقودك إلى الماء

تفقد العين وتسود الماء

وغمغم « رحمة » فى حزن وهو قابع فى عزلته :

- هأنذا قد فقدت عيني . ماذا تجدى سيادتي للماء ؟ .. يا للنبوءة .



## بنت السلطان

قالت الأم :

- لقد كُتِبَ عليّ يا « رحمة » أن أستقبلك يا ولدى لأودعك .

ابتسم « رحمة » ، وقال :

- هذه هي حياة البحارة ..

- لن تطمئن نفسي وأنت بعيد بين يدي هذا الوحش الذي تسمونه

بحراً ..

ضحك « رحمة » ، وهو يهمس :

- لم يعد وحشاً بالنسبة لي .. إنه صديق ورفيق .. بل أنا

سيده ..

- ولكنني أريدك أن تستقر ..

- من أجل هذا جئت ..

هتفت الأم :



- حقًا؟ ..

- نعم ، أريد أن أحقق أحلامي .. وأ.. وأتزوج ..

- ممن يا ولدي؟

- من .. بنت السلطان ..

- ماذا؟ .. بنت السلطان؟ .. إنك لم ترها .. ثم .. إن هناك

أخبارًا تقول إن شابًا من سادة بني كعب سوف يخطبها ، وسوف يأتي  
موكب كبير لم تشهد الجزيرة مثله من أجل هذه الخطبة ..

كان بنو كعب قد قدموا من شبه الجزيرة وتمركزوا في شمال الخليج  
العربي وفرضوا سيطرتهم على منطقة شط العرب ، وبدءوا ينهبون  
ويسلبون ويقطعون الطرق أمام القوافل بدون أن يستطيع أحد أن  
يوقفهم عند حدهم .. وقد حاول الفُرس ضربهم ففشلوا ؛ واستخدموا  
الأمير مهنا ضدهم ، ولم ينجح ، وزادهم ذلك قوة على قوة فهاجموا  
السفن الأوربية التي عجزت عن ردهم ، واستنجدت بالعثمانيين الذين  
لم يكن في يدهم شيء حيالهم ..

وشهدت المنطقة موكبًا رائعًا نظمه بنو كعب ، وطارأت أخباره هنا  
وهناك ، وكانت هناك قافلة برية تضم عشرات الإبل والخيول ،  
والمنشدين ، ويمضي معها بضائع ماث من الرجال الأشداء ، لا بسى  
الدروع ، حاملي الأسلحة ، يصفون عليه سحرًا .. وكان يمضي في



البحر موكب بحرى آخر ، من سفن ذات أشرعة ملونة ، عليها بحارة أقوياء ، وكان منظرها فى الليل رائعا وقد أضيئت مشاعلها . . وتساءل الناس :

- ما خطب هذا الموكب الأنيق ؟

وكانت الإجابة : أن أصحابه فى طريقهم للكويت . . يريدون مصاهرة الشيخ عبد الله . . سنخطب ابنته لواحد من شبابنا . .

كان واضحا أن هذا الموكب الساحر يخفى شيئا ماعن عرب هذا البلد الصغير المسالم . . لذلك اندس وسط الموكب شاب نحيف ، بعين واحدة ، يقظة لكل ما يدور حوله وكانت أذناه مفتوحتين للديب الثمل ، تتسمع الكلمات من هنا وهناك .

وقد بقى الشاب طويلا بدون أن يلحظه أحد ، فالموكب طويل والهمسات تتعالى ، وتصل إليه ، ليعرف كل شيء . .

وأخيرا انسل من بينهم قبل أن يفتنوا إليه ، وكان قد أنهى مهمته ، وأدى الدور المطلوب منه . . لقد جاء متخفيا من أجل أن يعرف حقيقة هذا الموكب والسرفى انطلاقه من شط العرب إلى شاطئ الخليج . .

سمع منهم أنه ليست هناك خطبة ولا مصاهرة ، ولم تكن هناك نية



زواج أونسب ، إنما هي واحدة من الحيل التي كان يلجأ إليها بنوكعب ،  
ومؤامرة ظاهرها موكب يسعى تحت لافتة ، بمهمة نبيلة ، باطنها غزو  
مسلح ، لبلد « رحمة » . . بعد أن أصبحت معبراً لتجارة الشرق  
والغرب . . بين الهند وسوريا ، عندما استولى الفرس على البصرة . .  
وقد اختفت الأسلحة في هودج فوق الجبال على أنها هدايا ثمينة لأهل  
العروس .

سارع « رحمة » بعد أن فطن للخدعة الرخيصة التي يعدونها ،  
وترك الموكب عائداً للكويت ، يعلن مواطنيه بما يُدبر لهم . . فأسرعوا  
يرتبون صفوفهم ، ويعبثون رجالهم ، ويجهزون سفنهم ، لمعركة طويلة  
دفاعاً عن الوطن والنفس .

واحتشدت الجموع : الرعاة ، التجار ، البحارة ، صيادو السمك  
واللؤلؤ . . كلهم يريدون أن يذودوا عن وطنهم . . ورسمت لهم  
الخطّة . . إن عليهم أن يهاجموا سفن شيوخ بني كعب وزعمائهم في  
بداية المعركة ، وأن يفيدوا من الجزر والمد : فإن سفن بني كعب لم يكن  
في استطاعتها أن تتحرك ، في حين أن قوارب ومراكب أبناء الكويت  
خفيفة صغيرة ، في مقدورها أن تحيط بسفن الأعداء من كل جانب .  
مضت سفن الكويت ، وجنودها ، ومعهم الربان « رحمة »  
بسفنه ورجاله ، يدافع عن وطنه ، وعن حبه العنيف . . وعندما



اقتربوا من موكب بنى كعب رأى الربان الجريء أن يلجأ إلى نفس أسلوبهم ويحاربهم بذات سلاحهم ، فأعلن أن موكب الكويت يُرحَّبُ بالضيوف ويستقبلهم في حفاوة . . . واندست زوارقه ومراكبه تحمل الأعلام الزاهية البراقة بين سفن أعدائه الضخمة التي كان الربان يخشاها ، لأنه يعرف قيمة مدافعها الكبيرة التي تندفع من فيها القذائف النارية إلى مسافات بعيدة تدمر وتحطم ، وكان هدفهم أن يغرقوا السفن ويضربوا المدينة وحصونها حتى تستسلم أو تهدم فوق أصحابها .  
لقد كان لقاء الموكبين غريباً ؛ كل منهما يتحين الفرصة من أجل أن يوقع بالآخر ، والحرب خدعة . . . وعند الرقة - وهي قطعة من البحر قرب جزيرة فيلكا شرق الكويت - تناقل البحارة كلمة السر المتفق عليها . . .

### وبدأت المعركة . .

كانت ضارية عنيفة . . السفن الصغيرة تحاور وتداور ، تكرر وتفر ، تضرب وتهرب . . وكل أمنيته أن تغرب الشمس ، فهم يعرفون جيداً أن المياه عند الرقة تقل ليلاً وقت الجزر ، فلا تستطيع السفن الكبيرة والمتوسطة المرور منها . . وكان الأمير عبد الله قد شعر بالقلق ، فإن جنوده وسفنه قد مضوا منذ وقت بعيد ، ولم ترد أخبار من الجبهة طيلة الوقت الذي كان كل من الموكبين يخدع الآخر ،



وأحس الرجل بأن رجاله بسفنه الصغيرة وأسلحتهم المتواضعة سوف يكونون عرضة للفناء أمام عدو لا يقل لهم به ، ولا قدرة على قتاله . . . وأدرك أنه قد عرضهم لمهمة ثقيلة ، فوق طاقتهم ، وتريد على احتمالهم ، وبدأ الندم يتسلل إلى نفسه ، وهاجمته الهواجس ، وراح يفكر في سبيل ينقذهم عن طريقه من الموت ، ويعيدهم سالمين . . . كان « خليل » - صديق « رحمة » وابن خاله - قد تخلف رغمًا عنه ، ولم يسر مع ركب المقاتلين ، لمرض طارئ ألم به ، وظل طيلة الوقت قلقًا . . . يعنف نفسه ويلومها لأنه لم يمض معهم . . . فإذا بالأمر يستدعيه ليطلب منه أن يكون رسوله إلى الجنود ليعودوا بدون أن يلتحموا بالأعداء ، إذا كان ذلك في استطاعتهم . . . أو أن يتراجعوا بأقل قدر ممكن من الخسارة ، فإن عدوهم أقوى ، وأسلحته أفضى ، وفرصته للنصر أكبر .

أبحر « خليل » بسرعة ، وكانت المعركة محتدمة ، والجنود البواسل بين كُرٍّ وقرٍّ ، يحاولون الوقعة بجنود أعدائهم . . . ووقف « خليل » من بعيد يرقب المعركة قبل أن ينبس ببنت شفة ، وحانت منه التفاتة إلى سفينة « رحمة » . . . إنه يعرفها جيدًا من بين مئات السفن . . . كانت بأسلة مثل ريانها . . . تهاجم . . . وتداور . . . وتحاور . . . تقدم . . . وترجع . . .





نبح « خليل » فى لفت نظر بحارة سفينة « رحمة » إليه ، فعادت إلى الوراء قليلا ، إلى الخطوط الخلفية . . وصعد « خليل » إليها يحمل الرسالة . .

قال « خليل » :

– الأمير يريد أن تعودوا . . . وتكفوا عن القتال . .

هتف « رحمة » : كيف هذا ؟ ولماذا ؟

قال « خليل » :

– هو يشفق عليكم . .

صرخ « رحمة » :

إننا لو تراجعنا الآن لأجهزوا علينا . . لقد فات الوقت .

سأل « خليل » :

– والحل ؟ . .

سكت « رحمة » قليلا يفكر . .

وبعد لحظات هب واقفاً يهتف : وجدت الحل . .

وفى كلمات سريعة تتقاذف من فمه كالحمم . . كأنها قذائف المدافع وطلقات البنادق أوجز خطته . . وهبط « خليل » من فوق ظهر السفينة ، ورجع إلى مركبه . .

وبعد لحظات شاهدت السفن هذه المركب الجديدة ، التى يستقلها

« خليل » ، وقد رفعت راية سوداء ، ومن فوقها يهتف هو وبحارته :

- ياجنودنا . . يابحارتنا . . يارجالنا . .

وأصاخوا السمع ، فإن دوى المدافع يغطى على الكلمات ، وصوت المعركة أعلى من كل الأصوات . . ولكن الرسول كان مصرًا على أن يبلغ رسالته إلى الجنود المقاتلين . . فاستمر يهتف :

- أميركم عبد الله يقول لكم . . سؤد الله وجوهكم . . إلى الآن لم تنجزوهم للقتال ؟ . . أتظنون أن المرء يموت قبل يومه ؟ . .

دوت الكلمات بين السفن ، وتناقلتها أشعة السفن ، وتحدث بها البحارة ، وسرت كالنار في الهشيم . . وصرخ فيهم « رحمة » :

- إن المرء لا يموت قبل يومه . .

وحركت الكلمات همهم ، كأنها طبول مدوية . . كأنها قذائف عنيفة . . فأنهالوا على أعدائهم في بسالة ، لاثخيفهم المدافع ، ولا ترهبهم القوة ، وزحفوا . . وضرَبوا . . سفينة تغرق ، وأخرى تهرب ، وثالثة تستسلم ، وزئير رحمة وقذائفه توقع الرعب في قلوب الأعداء . .

إنه يضرب بلا رحمة . . إنه يقفز فوق سفنهم بلا خوف . . إنه يستولى على سلاحهم بلا رهبة . . إنه يقاتلهم بلا مبالاة . .

لقد ضرب سفينة زعمائهم ، واستطاع أن يوقع بهم أكبر هزيمة . .



وعندما شهد بنو كعب شيوخهم وقد قُتلوا أحبطت همّتهم ، وخارت قواهم ، ورغبوا في الانسحاب ، ولكن سفن الكويت لم تعطهم فرصة لذلك ، كما أن الجزر حال بينهم وبين أن تمضي سفنهم الضخمة في المياه ، فوقفت مكانها تتلقى الضربات القاتلة المميتة ، بلا قدرة على المقاومة ، ولا فرصة للدفاع عن النفس . . . وانسحبت فلولهم مهزومة ، تجرر أذيال الفشل . . .

وارتفعت أعلام النصر فوق سفن الكويت ودقت طبوله . . . وعاد الأسطول خفاق الرايات يسوق سفن أعدائه ، وما غنمه من موكبهم الطويل في البحر ، في حين كانت قوافل بني كعب تسارع بالهرب ناجية بنفسها . . . وشقت السفن طريقها في البحر إلى الميناء . وكان هناك استقبال رائع حافل للمتصرين . . . ولكن رحمة لم يشعر بالحفاوة . . . كان يفكر في ( بنت السلطان ) . وعاد « رحمة » إلى أمه يسألها :

- ألا يكفي بلائي في القتال ليكون شفيعاً لي عند السلطان ؟ . . .

سكتت الأم لحظة قبل أن تقول :

- يبدو يا « رحمة » أنك تنسى نفسك كثيراً . . .

سألها :

- لماذا يا أمي ؟ . . .



قالت :

- حكاية بنت السلطان هذه ، كان يجب أن تنساها .. إن  
حكايات أهل أهلك عن الأمير ، وبنت السلطان ..  
وضحكت وهي تضيف :

- وحكايات أهلي أيضًا ، مازالت عالقة في رأسك ..

- لماذا لا تحقق في حياتنا ما في حكاياتنا ؟ .

- إنني أتمنى لك يا ولدي فوق ما تتمنى لنفسك .. ولكن  
طموحك هذا مدمر ، وأخاف أن يطعنوك في كرامتك وكبريائك ..  
-- من يجرؤ ؟ .

- قد يقولونها لك في مواجهتك ، وهم لا يعتبرونك فارسًا من  
فرسان البحر ، ولا يعدونك بطلا من أبطال التحرير .. لست في  
نظرهم سوى .. بعين واحدة ..

- ولكنني لست كذلك ..

- أنت تقلدهم ..

- بل أستعيد حقوقنا .. أنا لم أذهب لبحرهم وخليجهم ، وإنما  
هم الذين جاءوا إلى هنا .. إلى بحرنا وأرضنا ..

- يقولون إنهم جاءوا للتجارة ..

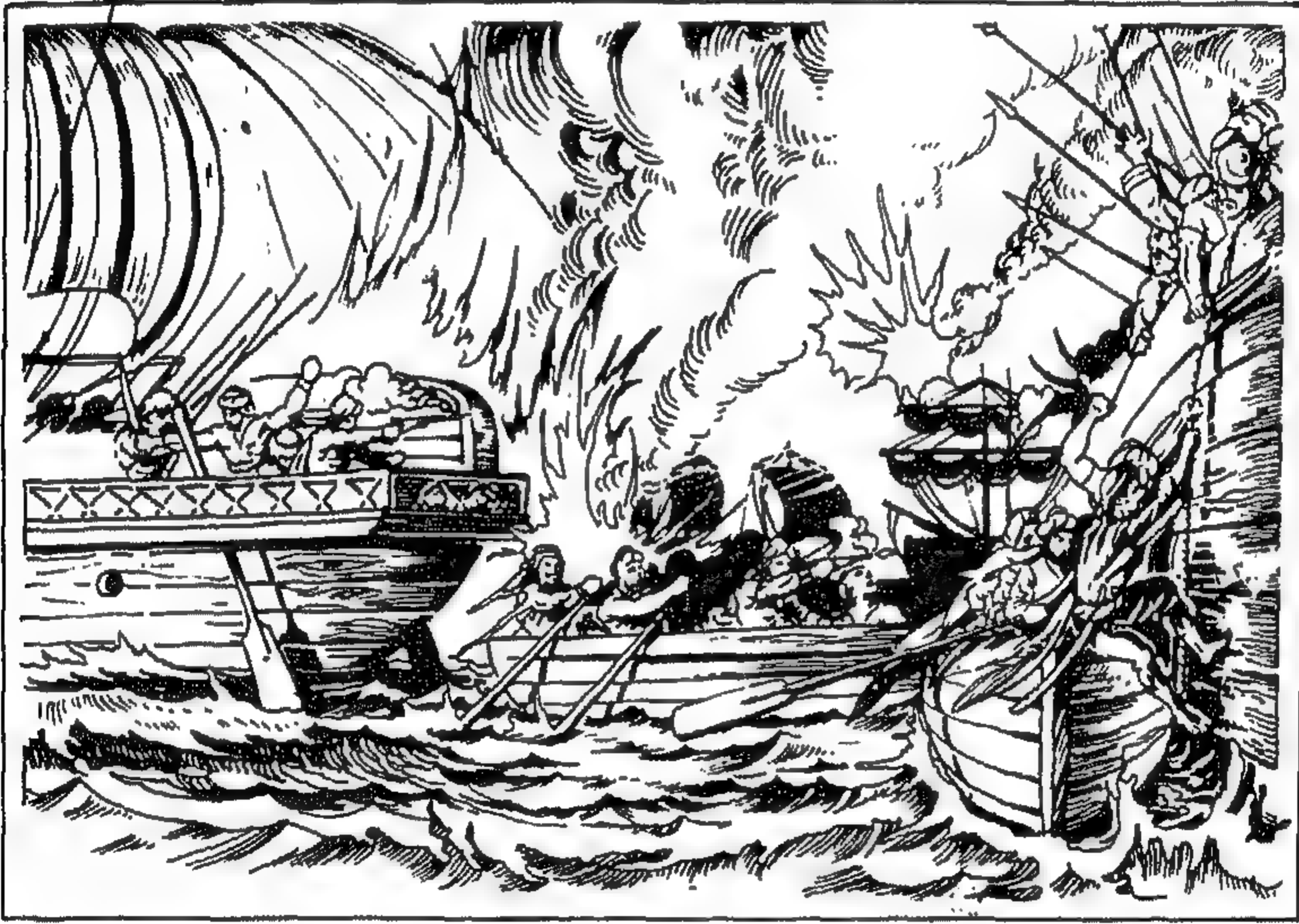
- التجارة ومن بعدها الراية .. إنهم يتجرون بحياتنا ..





وواصلت الأم كلماتها :

- يا ولدى .. لست ندًا لها .. أنت رجل بحر .. أعطيته  
عمرك .. وتحتاج إلى زوجة تصحبها معك في سفيتك ..  
وطارت الأحلام والآمال ..



## الريان الحاكم

خرج « رحمة » من قمرته ، وبجانبه ضيف لا يعرفه البحارة ، ولم يسبق لهم أن لاقوه ، ولو أنهم أنسوا إلى طلعتة ، وهيبته تدلّ على أنه من كبار التجار أو الأعيان ، وعلى أنه لا صلة له بالبحر ولا برجاله . . . وكان وجه « رحمة » يشرق بالفرحة ، ويسطع بالسعادة وهو يخطو على ظهر السفينة يوزع ابتساماته على البحارة ، ويربت ظهورهم ، وينثر عليهم كلمات حلوة لم يتعودوها منه ، وخاصة في الشهور الأخيرة المشيرة . . . لقد قضاها واجماً ، حزيناً ، صامتاً ، غارقاً في بحار من التفكير لا تقل عمقاً عن تلك البحار التي تمخر سفنه عباها ، ومن فوقها رجاله الذين تجاوز عددهم الألوف ، يسيطرون على الخليج كله ، ويهيمنون على شواطئه ، ويدفعون ثمن ذلك من حياتهم ، فهم يقاتلون القلق والضيق ، ويعيشون على حافة هوة يتردّون فيها في أية لحظة . . . وهم خلال ذلك كله لا يعرفون لسفنهم ، أوحياتهم ، ميناء



يستقرون عنده ، فلا يكادون يرسون عند شط حتى يقلعوا منه ، فهناك عشرات السفن تترصدهم ، ومئات الأعداء يتربصون بهم ، وألوف العيون ترقبهم ، والجميع ينتظرون تلك اللحظة التي ينقضون فيها على سفنهم ليغرقوها في المياه ، تخلصاً منها ومن شرورها ، وقد اتخذ « رحمة » من إحدى الجزر مستعمرة له ، أسماها « رحماتايا » . . كانت جزيرة مجهولة حصينة لا قبل لأحد باقتحامها ، ولا قدرة لسفينة على غزوها . . ولكن البوارج الأوربية جاءت ذات مساء لتدك الجزيرة ، ويضطر « رحمة » إلى أن يحمل كل شيء إلى ظهر سفنه وينطلق إلى عرض البحر . . وكانت تلك الضربة واحدة من ضربات راحت توزعها أساطيل أوربا على الموانئ العربية . . فقد ضرب أسطول فرنسا عام ١٧٩٨ الإسكندرية ، ونزلت قوات نابليون إلى مصر ، وبعث إلى سلطان مسقط يطلب إليه إرسال سفنه التجارية إلى السويس . . وفي عام ١٨٠٦ ضرب أسطول إنجلترا رأس الخيمة ، ونزل الجنود إلى الثغر يسرقون وينهبون ، وهم الذين ضربوا الميناء بحجة وقف أعمال السرقة والنهب . . وفي عام ١٨٠٧ قام نفس هذا الأسطول بقيادة فرينر بالهجوم على الإسكندرية ورشيد ، ولكن أبناء مصر قاتلوا المعتدين وهزموهم شر هزيمة . . وسقطت هيبة هؤلاء الجنود ، وأصبح أسطول الإمبراطورية التي لا يغرب عنها الشمس لا يخيف أحداً ، حتى أن





يستبدله بعد أن يبلى ، فيلقيه ويرتدى غيره . . ويسألونه :

- لِمَ هذا يا « رحمة » ؟

لا وقت عندي لأخلع وألبس . . هذه الأردية لا تجدى . . إنها  
لن تقينى الرصاص والسيوف . . فما قيمتها ؟ . .

وقد يحتال عليه البحارة من أجل أن يرتدى واحدة من أردية  
القراصنة الأجانب التى يستولون على سفنهم فيأبى قائلا :

- لست منهم ، ولا أنا مثلهم . . إنما أنا ضدهم ، واثار عليهم . .  
إنهم لصوص البحر ، والبر ، والبشر ، هم يحولون عالمنا إلى سوق  
كبير للرق والعبودية . .

أصبح « رحمة » معروفاً فى الخليج ، بل فى كل أرجاء الوطن  
العربى ، وصار قوة يحسب لها حسابها . . السفن الفارسية تعرفه جيداً ،  
وتخشاه وترهبه ، إذ تذكر معاركه معها فى البحرين ، وهو لا ينسى لها  
أبداً أنها سلبته نور عينه ، وسفن العثمانيين تضيق به وبالشكاوى  
العديدة التى تصلها ضده ، وتعتبره وريث الأمير مهنا ، ولا بد أن يلقى  
نفس مصيره ، فيشتق فوق أعلى سارية فى سفنه ، والسفن الأوربية  
لا تأمن على نفسها منه إذا هى شقت عباب المياه من « بومباى » عبر  
الخليج ، وهو فى واقع الأمر شوكة فى حلوهم ، تحول بينهم وبين  
السيطرة على هذه البقعة الملاحية الهامة ، وهم مستعدون لبذل أى



شيء للتخلص منه ، وتدمير أسطوله . . أما عرب الجزيرة فقد رضى عنه كثيرون منهم باعتباره بطلاً أسطورياً ، وفارساً من فرسان المياه ، استطاع أن يكيل للأعداء الصاع صاعين ، وتمكن من أن يوقع بهم أكثر من هزيمة تناقلت الدنيا كلها أخبارها . . ولكن هؤلاء لا يملكون حمايته وهو في عرض البحر ، ولا يستطيعون الدفاع عنه وعن سفنه لو أنه لجأ إلى إحدى الموانئ . . لذلك شعر « رحمة » بالتعب وهو يواجه كل هؤلاء الأعداء ، ويُطارَدُ من الجميع ، ولا يجد من يقف بجانبه ويسانده من أجل عروبة المياه والأرض حول هذا الخليج الرهيب .

\* \* \*

- تُرى ، هل يحمل هذا الضيف عرضاً جديداً؟ . . هل حدث الريان الجريء عن سفن جديدة في عرض البحر يستطيع بحارته السطو عليها؟ . . لقد ضاقوا بالبحر والقتال . . وهم يشعرون بأنهم يريدون شطاً . . مرفأً . . ميناءً . . هم يرغبون في التخلص من الإحساس بأنهم ملاحون تائهون ، بلا أرض تأويهم . . بلا وطن . . خارجون على كل القوانين مطاردون في البر وفي البحر . . ولا سبيل للاستقرار . . هل يمكن أن يحمل إليهم هذا الرجل استقراراً؟ . . من أين أنت أيها العم؟ . . انطق . . تكلم . . ربما عرفنا من

كلماتك ، لهجتك ، صوتك ، من أى أرض أنت . . وهل أنت رسول  
سلام أو نذير حرب ؟ . .

إنه طويل أسمر ، باسم ضاحك ، شامخ الرأس والأنف ، فى عينيه  
ذكاء ، ولكن الزمن ترك الكثير من التجاعيد على جبينه ، حتى أنك  
لتعطيه سنًا أكبر من سنه . .

ولكن الرجل ظل يلوذ بالصمت ، يستمع إلى همس « رحمة »  
وقد يتسم ، ويهز رأسه بالإيجاب أو الإعجاب ، وقد يبدى رأيه بإشارة  
رقيقة هادئة من يده . .

هذا الرجل الغامض أشاع كل هذه البهجة التى لا يدرون لها سرًا ،  
ولا يعرفون لها سببًا . . لِمَ لا ينطق هذا الرجل الغامض ؟ . .  
إن البحارة غير قادرين على تمالك أنفسهم . . إنهم يشعرون بحب  
استطلاع لا يقاوم ، لذلك راحوا يتمسحون فى « رحمة » ويدورون  
من حوله ، وهو مدرك تمامًا لمرادهم ، فاهم كل الفهم مرماهم ،  
ولكنه ظل على صمته ، حتى انتهت السهرة ، وعندئذ استدعاهم إلى  
غرفته ليقدم إليهم ضيفه . .  
. . قال « رحمة » :

ضيفنا أيها الإخوة ليس من رجال البحر . . ولكنه بطل ابن  
بطل . . اسمه السيد محمد المحروقي .

وأطرق الضيف خجلا . . وواصل « رحمة » حديثه :  
أبوه السيد أحمد المحروقي قاوم نابليون ، وخاض هو المعركة بعد  
المعركة هنا على أرض الجزيرة العربية . .  
- إذن هو من . . مصر . .

- نعم هو من مصر المحروسة . . من القاهرة . . من بلد النيل . .  
والأزهر الشريف . . سأدعه يتحدث . .  
ابتسم الضيف ، وقال في تودة :

أريد أن أعبر لكم عن سعادتي بوجودي بينكم . . إن شعاركم  
الذي رفعتموه « البحر الأخضر يتقم للبحر الأحمر » هز وجدانا . .  
نعم ، ما من عربي في مصر سمع هذه العبارة إلا وخفق قلبه بين  
ضلوعه . . إنه لرائع أن تذكروا أسطولنا الذي سيطر طويلا على البحر  
الأحمر ، وكان له مع البرتغال نضال سنين طوال . . وها أنتم أولاء  
تريدون أن تتقموا له بعد قرون ثلاثة لم تكن لنا في هذا البحر سفينة  
واحدة ، إذ سلبنا العثمانيون وإياكم كل شيء . . وقد يسألني  
أحدكم :

- لماذا تحاربون من أجلهم ؟ . .

لقد جئنا لكي ننقذ الحرمين ، وننقذ أنفسنا ، جئنا لكي نؤمن  
سبيل الحجاج ، ونؤمن سبيل بلادنا للحرية . . عشنا طويلا في ظلام



الاستعباد العثماني ، وقد آن الأوان لكي يعلو شأن هذا البلد العربي - مصر - ليتبوأ مكانه بين بلدان العرب والمسلمين . . لقد أفقدنا السلاطين العثمانيون الكثير . . أفقدونا ديننا وخلقنا ، عروبتنا وبلادنا ، استقلالنا وحریتنا ، علمنا ومالنا ، زراعتنا وصناعتنا - وآن لنا أن نسترد كل هذا . . وليكن ذلك عن طريق « القوة » ، إنها وحدها في هذا الزمان المعيار الحقيقي للمكانة . . نحن نريد أن نوطن مركزنا ، ونقوى هيبتنا إزاء هؤلاء الذين أذلوا بلادنا طويلا ، لذلك أعلننا الجهاد . .

سكت السيد محمد المحروقي قليلا ، قبل أن يواصل حديثه قائلا :  
- وعلى شاطئ خليج عربي آخر ، يقابل هذا الخليج ، شرقاً ، ظللنا لشهور طويلة نعد أنفسنا للجهاد والقتال . . لقد وصلت إلى السويس قوافل الإبل ، كانت ثمانية عشر ألف جمل ، كل منها يحمل قطعاً صافية من الخشب نقلتها من حى بولاق بالقاهرة . . وقبل ذلك بشهور كانت هذه الأخشاب قد حملت إلى ترسانة بولاق من جميع أنحاء مصر ، ومن أرض سوريا ولبنان ، من أجل إنشاء عمارة بحرية ، وهناك اجتمع كل صناع المراكب في بلدنا ، لقد مضى علينا اثنا عشر جيلاً لم نصنع خلالها إلا الزوارق بعد أن أخذ سليم الأول كل صناعنا المهرة إلى الآستانة . . ولكننا نعرف السفن والبحر ، وشواطئنا أطول



من شواطئ الجزيرة البريطانية نفسها ، وشعبنا يرث في قلبه خبرات  
خمسة آلاف عام . .

ففي قديم الزمان أبحرت سفننا المصنوعة من البردى ومن الخشب في  
البحرين : المتوسط والأحمر ، وسيطرت أساطيلنا عليها سيطرة كاملة . .  
وخلال أشهر قليلة استطاع عمالنا المهرة أن يصنعوا سفناً رائعة ،  
ثماني عشرة سفينة حملتها الإبل ليتم تركيبها في السويس ، ونزلت إلى  
الخليج كي تستوعب الجنود والمؤن والذخيرة والمهمات لسته آلاف من  
المشاة . . وحملتهم إلى ينبع ثغر المدينة المكرمة ، في حين سار ألفان من  
الفرسان عبر سيناء المقدسة من السويس إلى العقبة ، وانطلقوا على شط  
خليج العقبة ، ثم شاطئ البحر الأحمر ، وعند ( ينبع ) التقى المشاة  
والفرسان . . وزحف الجيش يعلى كلمة الله ، ويفتح طريق الحج ،  
حتى تم النصر له ، وها هي ذى طلائع قواتنا قد وصلت إلى هنا ، إلى  
شط الخليج العربي ، ودارت سفننا حتى وصلت إليكم . .  
هتف « رحمة » :

- مرحبا بها في خليجها . . وخليجنا . . لقد ناضلت سفنكم ضد  
البرتغال ، حتى أن البرتغاليين لم يستطيعوا استعمار أرضنا والسيطرة على  
خليجنا إلا بعد أن خلى لهم الجو ، ولم يبق لمصر أسطول في البحر  
الأحمر .



ابتسم الضيف القادم من مصر وواصل حديثه :  
وعندما وصلت طلائعنا إلى أرض الخليج تجاه البحرين لم تكن  
لدينا أى رغبة فى القتال ، فإن مهمتنا هنا محدودة ، وليست لنا  
أغراض ولا أطماع ، كل ما نريد هو أن يقوى ركزنا تجاه السلطان ،  
لتصبح لنا حرية فى الوطن وفى العمل .

قال « رحمة » :

- إن أصداء انتصاراتكم قد هزت الجزيرة ، وأعلنت البحرين  
عن رغبتها فى التعاون معكم .. ونحن أيضاً لكم ، وبكم ..  
قال الضيف :

- لقد شعرنا من أول لحظة أن لنا فيكم نعم العون .. فإنك أيها  
الربان الكويتى الجرىء ، والملاح العربى المحارب وقد وقفت ضد  
الأجانب .. ضد العثمانيين والفرس .. ضد الأوربيين الغرباء .. ثم  
إنكم أيها البحارة الشجعان ساعدتمونا كثيراً فى قتالنا هنا فى هذه  
الأرض المقدسة التى سالت عليها الدماء طاهرة عزيزة . تروى قصصاً  
بطولية خالدة .. وقد آن الأوان لكى أعلن لكم وأذيع عليكم قرار  
قائد قواتنا فى الجزيرة العربية :

« يعين رحمة بن جابر حاكماً على الدمام ومسئولاً عن منطقة  
الأحساء » .



هتف رجال « رحمة » وصفقوا طويلاً . . سعداء بالنبأ الجديد . .  
ورقص البحارة وغنوا للصباح . .  
أخيراً أصبح لهم شط . . مرفأً . . ميناء . .

\* \* \*

ورست سفن « رحمة » عند الدمام . . وأنزلت الأعلام  
السوداء ذات الجمجمة والعظمتين ، ورفعت علماً أخضر ، تزيينه  
النجوم البيضاء . .  
ونزل البحارة . .



وبدأت الحياة تدب في الميناء ، وبدأ البناء . .  
وكان أن أقام « رحمة » وصحبه قلعة كبيرة حصينة لتكون مقراً  
لقيادته . . ها قد أصبحت « عيناً » من الأعيان يا « رحمة » . .  
ها قد تحقق شطر من النبوءة الثالثة للعراف الهندي . .  
وبقى شطر « ويغلبك الماء » . .  
لا ، لن يحدث . . إنك سوف تطلق الماء ، ولن تعود إليه بعد أن  
أصبحت حاكماً ، وصاحب قلعة ، تطل من نوافذها على سفنك  
الرابضة في الميناء ، ومن فوقها رجال أشداء أقوياء ، لا قبل لأحد  
... ٣٢

\* \* \*



## ختم

رست سفينة الريان الجريء ، « رحمة بن جابر » على ميناء  
الدمام ، وتنفس الصعداء ، وابتسم في سعادة .. كم يريد أن يخلد  
للراحة بعد كل هذه المغامرات المتوالية التي واجه فيها الموت مئات  
المرات ، والتي كلفته كل سنى طفولته ، وصباه ، وشبابه ، ورجولته ،  
وقد أصيب خلالها كثيراً حتى أنه لم يعد في جسده شبر إلا وفيه ضربة  
سيف أو طعنة رمح .. وهو برغم كل ذلك لا يتمنى أن يموت في فراشه  
ميتة الجبناء ، ولا يود أن يجد نفسه داخل قلعته كالجرذ الصغير ، حيساً  
سجيناً ، يجرى بين الغرف والردهات ، ينتظر المصير الرهيب .. إن  
الراحة لا تعنى أن يغمض عينه الباقية عما يجرى حوله ، فهو يعلم أن  
كثيرين يريدون أن يثأروا منه لأنفسهم ، ويرغبون في أن يوردوه مورد  
الهلاك ، هو وسفنه الرابضة في الميناء تغطي صفحة المياه ، دون أن  
يستطيع أحد أن يحصيها عدداً ، فقد أقبل البحارة من كل صوب  
وحذب ينضمون إليه بسفنهم ، ويعلنون ولاءهم له بعد أن سيطر



أسطوله سيطرة كاملة على الخليج ، وصار يتقاضى الإتاوات من سفن الأتراك والفرس والهنود ، ويفرق سفن إنجلترا وفرنسا وهولندا .  
وقد ضاقت أوروبا بهذا الذي يجرى في دنيا البحر . في البحر المتوسط سيطر على غربه أسطول الجزائر ، وعلى شرقه أسطول مصر . .  
أما البحر الأحمر فعاد من جديد لسيطرة مصر تغدو سفنها من السويس إلى ينبع وجدة ، وتعود بأنباء انتصارات جنودها . . وهاهم أولاء العرب في الخليج يرهبون سفن هولندا والبرتغال ، بل سفن إنجلترا وفرنسا . . «القواسم» في الجنوب ، «وبنوكعب» في الشمال و«رحمة» من الدمام يقطع الطريق على كل سفينة عابرة . . وصار يتعين على إنجلترا أن تعمل ، وأن تأخذ بالمبادرة فهي تريد أن تثبت سيادتها للبحار ، وهي صاحبة الهند - أكبر درة في تاج الإمبراطورية التي أصبحت لاتغرب عنها الشمس - والطريق إليها مهدد الآن بهذه الأساطيل .

وبدأت إنجلترا تفكر . . أين تبدأ ضربتها ؟

كانت رأس الخيمة هي عاصمة «القواسم» وأكبر معاقلهم ، وضربها يهدد القراصنة في كل مكان . . ثم هي بلدة الربانة العظام والملاحين الكبار أبناء ابن ماجد ، وترك أمورهم تستشرى على هذه الصورة سوف يدفع غيرهم إلى مواصلة ضرب سفن الإمبراطورية ،





















و «رحمة» يرفض أن يغلبه الأعداء ، ويرضى بالهزيمة من الماء . .  
وفجأة ذكر حلمه الذى رآه فى طفولته . . . لقد تكاثر الصبيان ضده ،  
كل منهم يأخذ بتلايه من ناحية ويتجاذبونه بينهم ، فأصابه الدوار  
وشعر كأنما هو وسط أمواج بحر تتقاذفه . . إنه يحس بالدوار ، ولكن  
صياح الديك وصوت أمه لن ينقذوه الآن ، ولن يوقظوه من نومه بل  
إنه سوف ينام طويلاً . . طويلاً . . طويلاً .

لقد عمد «رحمة» إلى نفس سفيته بكية من البارود  
والديناميت ، وتطايرت أشلاؤها ، وأشلاؤه ، ومات ميتة أسطورية  
مثل حياته ، وقدم للناس تراجيديا يونانية «عنيفة» .

\* \* \*

وشهدت مياه الخليج بعد أيام ، واحداً من رجال البحر . . إنه  
«خليل» صديق عُمَر «رحمة» وقريبه . . إنه يستقل سفينة تمخر  
عباب الماء ، وفى أعماقه قبر «رحمة» وعلى سطح الماء تناثرت الأزهار  
التي ألقى بها «خليل» وهو يذرف دمه على الربان الجرىء ،  
ويقول . .

- رحمة الله على «رحمة» .

\* \* \*





## المراجع

---

- تاريخ الكويت - للشيوخ عبد العزيز الرشيد
  - أضواء على تاريخ الكويت - قدرى قلعجي
  - الخليج العربى - قدرى قلعجي
  - الخليج العربى - أرنولد ولسون
  - الخليج العربى - جان جاك بيرى
  - الاستعمار فى الخليج الفارسى - د. صلاح العقاد
  - تاريخ الحركة القومية فى مصر - عبد الرحمن الرافعى
  - حديث السندباد القديم - د. حسين فوزى
  - ألف ليلة وليلة
- وذلك عدا دوائر المعارف ، وقصص ادجلد ألن بو ( الحشرة الذهبية ) وروفاثيل سباتينى ( كابتن بلود ) ، وجيمس بارى ( بيتربان ) وروبرت لويس ستيفنسون ( جزيرة الكثر ) .

|                    |                |
|--------------------|----------------|
| ١٩٩١ / ٢٨٦٦        | رقم الإيداع    |
| ISBN 977-02-3203-0 | الترقيم الدولي |

١ / ٩١ / ١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



# أفكارنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة  
واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة  
المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام

ظهر منها :

- |                                |                         |
|--------------------------------|-------------------------|
| ١٦ - مون فليت                  | ٢ - عمرون شاه           |
| ١٧ - مقبرة الأفيال             | ٣ - مملكة السحرة        |
| ١٨ - الربان بلود               | ٤ - كريم الدين البغدادي |
| ١٩ - تيودورا                   | ٥ - آلة الزمن           |
| ٢٠ - أوليفرتويست               | ٦ - الأمير والفقير      |
| ٢١ - دافيد كوبر فيلد           | ٧ - كتاب الأدغال        |
| ٢٢ - في مهب الريح              | ٨ - بينوكيو             |
| ٢٣ - الفخ الذهبي               | ٩ - نبوءة المتجم        |
| ٢٤ - عودة المحارب              | ١٠ - روبن هود           |
| ٢٥ - حصان طروادة               | ١١ - دون كيشوت          |
| ٢٦ - نساء صغيرات               | ١٢ - أيفنهو             |
| ٢٧ - قوم سوير                  | ١٣ - جزيرة الكنز        |
| ٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن | ١٤ - كنوز الملك سليمان  |
| ٢٩ - الربان الجريء             | ١٥ - سجين زندا          |
| ٣٠ - العم تعناع                | ١٦ - الزنبقة السوداء    |
| ٣١ - أم حنان                   |                         |

قروش  
٤,٥٠